آثار بيسان

جئنا في العدد الماضي من المقتطف على وصف ما وجد في بيسان من الآثار المصرية واهمها الحصن المصري وثلاثة انصاب للملك ستي الاول ورعمسيس الثاني ونمثال لرعمسيس الثالث والآن نتم الكلام على ما وجد فيها من آثار العصور التي تلت عهد المصريين اي من عهد الفلسطينيين والاسرائيليين واليونان والرومان والعرب والصليبيين وهذا كلهُ مما بعث بهِ الينا الدكتور فشر رئيس بعثة متحف فلادلفيا الأثرية التي نقبت في بيسان قال

وقعت بيسان في حوزة الفلسطينيين في الفترة القصيرة التي تلت حكم رعمسيس الثالث وسبقت دخول بني اسرائيل ارض كنعان . وكانت الحامية المصرية في الحصن قد قطعت الامل من نجدة تصلها من مصر فسلمت مفاتيحهُ للفزاة . وبقي الحصن في يد الفلسطينيين حتى شرع بنو اسرائيل في تقسيم ارض كنعان بين اسباطهم المختلفة وقد استطاع الفلسطينيون مقاومة شاول وجيشهِ حينما حاربهم والحقوا بهِ وبجيشهِ خسارة فادحة على المنحدرات القريبة من عين جلعاد حيث قتل شاول في المعركة وعلّق الفلسطينيون جثث رؤساء الاسرائيليين على جدران بيت شين اظهاراً لاحتقارهم لهم

ولدينا اقوى الادلة الاثرية على ان الحصن لم يقع فيهِ تغيير ما حتى ذلك الوقت بدليل ان بعض الشقف الخزفية التي وجدت في غرف الطبقة الموافقة لعهد الفلسطينيين قديمة يرجع تاريخها الى اواخر الالف الثانية قبل المسيح وهو عهد الدولة المصرية الثامنة عشرة التي كان الحصن في حوزتها وهذا يثبت ان البناء القديم كان لايزال مستعملاً حينئذٍ . ولكن بعد ذلك بزمن قصير دمّر الحصن بشبوب النار فيهِ ومن تاريخ هذه النار تستطيع معرفة بعض التواريخ المجهولة قبلهُ او بعدهُ اذ لا ريب في ان الملك داود هو الذي احرق الحصن حوالي سنة ١٠٠٠ قبل المسيح

من المعروف ان الملك داود لمن تلك الناحية حينما اخبرهُ الرسول بموت ابنهِ ابشالوم والادلة موفورة على انهُ ما كاد يثبت دعائم ملكه حتى استخدم الفرصة الاولى السانحة ليثأر لاسرائيل ويقضي على ما يهدد سيادتهم المطلقة في ارض الموعد

قاعدةً عدتهُ لمحاربة بيت شين وافتتح الحصن عنوة بعد هجوم عنيف كما فعل بعد ذلك بمدينة اليوسيين التي اتخذها عاصمة للملك . وبقيت بيت شين تدفع الجزية للاسرائيليين في ايام سليمان . لكن الحصن عفت آثارهُ وقطع اللبن شويت كلها بالنار الشديدة وخصوصاً ما كان منها في الجانب الشمالي من الحصن حيث كانت مخازن الزيت فزادت النار اشتعالاً . في هذا القسم من الحصن وجدنا قطع اللبن والمواد التي بُني بها السقف متراكمة بعضها فوق بعض الى علوّ متر او اكثر والجانب الاكبر منها لاصق بعضهُ ببعض حتى ليصعب فصلهُ ونقلهُ

ولم يبقَ في بيت شين ما يهدّد ملك الاسرائيليين بعد ان دكّ حصنها هذا . ثم مضى عليها نحو ثمانمائة سنة بعد ذلك وتاريخها خالٍ من الحوادث الكبيرة التي تستحق التدوين على ان امراً واحداً حفظها من الخراب التام وحال دون صيرورتها قاعاً صفصفاً وذلك اننا وجدنا على انقاض الخرائب القديمة وحولها آثار مدينة اخرى من بيوت صغيرة اجتمعت هناك بلا نظام او ترتيب وبينها غرف مستديرة لخزن القمح وافران لخبز الخبز . وهذه الآثار هي الدليل الوحيد الذي يؤيد وجود عمارة هناك وضع الكيثيون اساسها حينما اجتاحوا البلاد في القرن السابع قبل المسيح . ولعلّ وجود احفاد هؤلاء الكيثيين فيها جعل اليونان يدعونها سكيثوبولس اي مدينة الكيثيين وذلك سنة ٤٠٠ قبل المسيح . لكن الستار كان قد سدل على امجاد بيت شين الساميّة وحينما نهضت ثانية كانت قد صارت مدينة اخرى تزهو في ظل عمران آخر وقُدّر لها ان تفوق سابقتها في الثروة والجمال والحضارة والسلطان على انها لم تعتمد في بلوغ ذلك على النزعة الحربية المتأصلة في حصنها القديم بل كان اعتمادها على التجارة والدين

واقدم الادلة على نهضة بيت شين هو بقية آثار هيكل فخم على قمة التل . فقد عثرنا هناك على قطعتي عامود من اعمدة هذا الهيكل عليهما كتابات دقيقة فيها اسم ديمتريوس . ووجدنا في احدى الغرف الجنوبية من الهيكل مجموعة من النقود الفضية التي يرجع عهدها الى ايام بطليموس سوطر الاول . هذه النقود تدلُّ على ان باني الهيكل هو ديمتريوس الاول الملقب بليورسيتس ملك مقدونية (٢٩٤ — ٢٨٧) ق.م. ولسبب ما لم يتمّ بناء الهيكل على يده فبقي الى العهد الروماني . ولم يحفظ منهُ الى الآن سوى جانب صغير من جدران الاساس التي في الجهة الغربية وقطع

مختلفة من الاعمدة وتيجانها. والاعمدة من حجر الجير (الكلس) الذي في فلسطين قطر كل منها نحو متر وثلث وقواعدها منقوشة على الاسلوب الاثيني ورؤوسها على الاسلوب الكورنثي وتغلب الصبغة الرومانية في سائر مانقش عليها . والظاهر ان الهيكل كان معبداً للاله باخوس بدليل وجود صورة لرأس هذا الاله محفورة على الافريز . وان لم يكن الهيكل معبداً لباخوس منذ بنائه فقد صار كذلك بعدئذٍ ويؤيد هذا الرأي دنّ للاله باخوس ترضعهُ عرائس البحر وكلها مصنوعة من الخزف عثرنا عليها في المدفن. وقد خلط الكتّاب القدماء بين تل نيسا مسقط رأس باخوس وسكيثوبولس ولذلك نوجود هيكل لباخوس هنا لم يكن بالامر البعيد ولا بالاكتشاف غير المنتظر . وكان لباخوس او لاحد امبراطرة الرومان تمثال ضخم من الرخام الناصع البياض قائماً داخل الهيكل او امامهُ . والراجح ان علو هذا التمثال كان نحو ثمانية امتار فقد عثرنا منهُ على اصبعين من رجلهِ وعقدةٍ من احد اصابع يديهِ في انحاء مختلفة من التلّ والظاهر ان الجانب الاكبر من التمثال حرق تدعاً لعمل الجير . وقد عثرنا ايضاً على فسيفساء جميلة قرب الرواق الغربي قطعها محكمة القطع والوضع حتى تظهر الاشكال بالوانها . ولا نستطيع ان نرسم صورة تامة لشكل الهيكل ونظامهِ ولكننا نستطيع ان نعرف علوهُ من الاعمدة وقطعها

وكان لهذه المدينة من موقعها التجاري وخصب الاراضي المجاورة لها ما جعلها بمثابة عاصمة المدن التي تجاورها وحينما انتشرت الديانة المسيحية كثر ذكرها لما فيها من الكنائس والصوامع الفخمة

واول كنيسة بنيت على قمة التل اقيمت في القرن الرابع الميلاد . فهُدِمَ الهيكل الوثني واستعملت حجارتهُ في تشييد الكنيسة وكان بناؤها على مثال الكنائس الشائع حينئذٍ صحن واسع يمتد من المدخل الى المذبح وجناحان على جانبيهِ اضيق منهُ . وكانت الكنيسة متسعة الجوانب حتى لتشغل معظم القمة . ولا تزال جدرانها الشرقية والجنوبية والغربية وآثار مقدَّمها حيث المذبح باقية الى الآن . وكان الطريق المؤدي الى الكنيسة متعرجاً يمتدُّ من زاوية التل الشمالية الغربية الى الدكة الغربية . وكان الرواق الشرقي وبعض الغرف التي تحيط بمقدَّم الكنيسة مرصوفة بقطع مربعة من الرخام الابيض والرخام الاحمر في صفوف تمتد من زاوية الى اخرى . وعثرنا ايضاً على غرفة صغيرة محاذية للطرف الشمالي من

الرواق الشرقي فكانت الفسيفساء فيها تامّة . وخارج الطرف الشمالي من مقدّم الكنيسة وجدنا مدفناً محفوراً تحت الارض ومركزهُ هذا يدلُّ على انهُ مدفن القديس بانرفيلس او راعٍ لكيثوبولس

ولما اضطهد المسيحيون سنة ٣٦١ ب . م . نهبت الكنيسة وحرقت ويقال ان حرمة هذا المدفن انتهكت وعلّقت جمجمة القديس المدفون فيها كقنديل ، ونزعت القطع الرخامية التي حفرت فيها الصلبان والاكاليل وكانت تحيط بالمذبح فكسرت ثم رميت من اعلى السور الى الخارج فسقطت على البيوت القائمة على جوانب التل . وقد عثرنا في هذه البيوت على بعض الآثار التي نزعت من الكنيسة حينئذٍ وبينها اكاليل من البرونز للقناديل وخرزتا باب كل منهما بشكل اسد من البرونز وقطع من مفاصل الابواب وغير ذلك من الادوات

على ان الكنيسة لم تُترَك خراباً بل بنيت ثانية وغيرت هندستها فبدل الصحن المتسع الطويل الذي كان يمتد من المدخل الكبير الى المذبح بصحن مستدير . وحيث ان المهندسين اضطروا ان يبنوا صحن الكنيسة الجديدة بين انقاض الكنيسة المتهدمة لم يستطيعوا ان يجعلوا الصحن تام الاستدارة فجاء في احدى الجهات مسطّحاً . وقطر هذا الصحن نحو ٣٥ متراً وفي وسطهِ مقصورة محوطة بالاعمدة ومرصوفة بقطع كبيرة من الرخام . والظاهر ان قبة فخمة مفتوحة من اعلاها بنيت فوق الاعمدة ومع ذلك بقي شكل الكنيسة الخارجي كما كان قبلاً

وجاء العرب ففتحوا المدينة سنة ٦٣٧ ميلادية وحولوا الكنيسة جامعاً ولكنهم حافظوا على البناء ولم يغيّروا فيهِ شيئاً سوى انهم حفروا امتعاهم بالخط الكوفي على الرخام الذي في الارض والراجح ان جانباً من الجامع تهدّم بزلزلة سنة ٧٥٨ وسنة ٧١٣ ولكن ارضهُ رصفت ثانية فتشوهت الكتابات الكوفية .

وبعد ذلك درست معالم البناء حينما وضع العرب اساس مدينة عربية هناك سنة ٧٨٤ ب . م والدليل على ذلك وجود كتابة مستفيضة على احد الاعمدة . وكان مطروحاً في احدى طرق بيسان

وكان اسم البلدة القديم اي بيت شين قد حفظهُ النقل فبقي متداولاً على السنة بعض السكان وحينما قدم العرب كثر استعمالهُ ثانية فحرّف وصار « بيسان »

وبنى العرب حول المدينة سوراً وقسمت الى قسمين يدخل في القسم الاول منهما جميع المباني التي على المنحدرات الغربية والشرقية. وكان هذا القسم مؤلفاً من بيوت صغيرة وشوارع ضيقة . اما القسم الثاني فكان مؤلفاً من المباني التي على القمة وكانت قائمة كلها على دكة وحولها سور خاص يفصلها عن القسم الاول . وكان مركز الحكومة هناك

والظاهر ان الاهالي اثناء حصار العرب للمدينة دكّوا السدود التي كانوا قد اقاموها للتحكّم بالمياه المتحدرة ولم يمنّ العرب ببناء هذه السدود ثانية فتحولت الحقول الى مستنقعات واصبحت مباءة للاوبئة الفتاكة وبذلك امتلك بيسان عدوٌ جديد اشدّ فتكاً من جميع اعدائها الاخرين. فلم تنمُ في عهد العرب ولم تتسع متاجرها

ولما جاء الصليبيون بلاد فلسطين ادركوا ما لتلك الاكمة من الشأن الحربي الفريد فاقاموا على الجانب الجنوبي منها بيتاً للسكن وثكنة للعسكر والبيت مؤلف من دورين الاول فيه غرفة للطعام وفرن ومخازن للمؤونة والثاني فيه غرف للنوم والمرتقى اليه بسلّم مزدوج . وكانوا قد أعدّوا العدّة لبناء حصن حصين لكنهم لم يبنوا سوى اساس الزاوية الشمالية الغربية منهُ لان الحالة الصحية في بيسان لم تمكنهم من البقاء فيها فغادروها واختاروا قمة اكمة على بضعة اميال الى الشمال وبنوا هناك حصناً دعوهُ بلفوار . لكنهم تركوا بعض الجند في بيسان فتمكن من صدّ هجمات صلاح الدين وجيشه سنة ١١٨٦ ولكن صلاح الدين تغلّب عليهم فسلموا في السنة التالية . اما حامية بلفوار فبقيت تقاوم سنة ونصف سنة . فكان آخر حصن من حصون الصليبيين في الاراضي المقدسة استعادهُ صلاح الدين للعرب

بعد ذلك سدل الستار على عظمة بيسان واخذت الحمى الملاريا تفتك بسكانها فتكاً ذريعاً ولم يبقَ منها سوى بضعة اكواخ حقيرة يسكنها اناس ضعاف البنية ناحلو الوجوه لا شأن لهم

اما الآن فتعدُّ العدة لنزح المستنقعات بالوسائل العلمية الحديثة ، وستزرع في الحقول الحبوب على اختلاف انواعها والكتان ولا تزال القوافل تمرُّ بها كما كانت في الزمن الغابر لانها على ملتقى الطرق بين بلدان الشرق الادنى ولا شك انها ستستعيد مقامها السابق بسهر الحكومة ونشاط الشعب